



لم يحتجُ الجيش السوري إلى إذنٍ من الولايات المتحدة قبل البدء بالمعارك التي خاضها، على مر السنوات السابقة، من أجل إعادة فرض سيطرته على المدن التي كانت تحت سيطرة المعارضة السورية المسلحة، أو حتى تنظيم داعش الإرهابي. لكن، هذه المرة، مع معركة إدلب، المحتملة، ومع معركة درعا التي سبقتها، قبل أشهر، أطلَّ الرئيس الأميركي، دونالد ترامب، لُيدلي بما يشبه الإذن لهذا الجيش من أجل البدء بعملياته العسكرية. كما تَبَعَ إطلالته صدور كلامٍ من مسؤولين أميركيين آخرين تندرج ضمن السياق ذاته. وكان اللافت، هذه الأيام، كلام ترامب عن أن الهجوم على إدلب يجب ألا يكون متھرًا، ما يشبه التسلیم بالهجوم المتوقع .

وكان ترامب قد قال، في تصريحه الذي حملته تغريده على موقع تويتر، في 4 سبتمبر/أيلول الجاري: "لا يجب على الرئيس السوري بشّار الأسد مهاجمة محافظة إدلب بتهور"، بمعنى ألا يستخدم في الهجوم الأسلحة المحرّمة دوليًّا، ما قد يُحرج الإدارة الأميركيّة. وهي مفارقة، حيث إنّه لم يصرّح بما يدلّ على رفضه الهجوم، كما اعتاد أن يفعل. ولم يدلّ ترامب بهذا التصريح حين كان الجيش السوري يُعزّز قواته على حدود المحافظة. وهي حشودٌ، يرى غير المختص، في ضخامتها وعديدها ملائمةً لعملياتٍ كبيرةٍ على وشك الواقع، لكنه انتظر حتى بات الاستعداد تاماً للبدء بالهجوم، فأطلق تصريحه ذاك، ربما ليوقف الشكوك لدى طرفي المعارضة والنظام، بشأن موقف إدارته منه، إذ يشكل غياب موقفٍ كهذا إرباكاً لكليهما .

ولكن، ما الذي طرأ حتى يُطلق ترامب تصريحاتٍ على هذه الشاكلة؟ بل لماذا أتبّعه رئيس هيئة الأركان المشتركة الأميركيّة بالتوصية بتنفيذ عملياتٍ محدّدة، وعلى نطاقٍ ضيقٍ ضدّ المتشدّدين في إدلب، لأن عملية عسكريّة كبيرة ستؤدي إلى كارثة إنسانية، حسب قوله؟ إلا أن الاستغراب يزداد مع التصريح الأكثر إثارة، على لسان مندوبة واشنطن في مجلس الأمن، نيكي

هيلي، في مؤتمر صحافي عقده في الأمم المتحدة في اليوم نفسه. إذ بعد التوطئة بالكلام عن الإرهاب في سوريا، قالت إن بإمكان قوات النظام المضي للسيطرة على كامل الأراضي السورية، شريطة عدم استخدامها السلاح الكيماوي .

وتعيد هذه التصريحات إلى الذاكرة تصريحات الإدارة الأمريكية، وترامب نفسه، بشأن معركة درعا والجنوب السوري، وطريقة تعاطيهم معها التي لا تشبه طريقة تعاطيه مع معركة إدلب المحتملة. فبالنسبة إلى معركة درعا، بدايةً، حذرَت الخارجية الأمريكية في بيان لها، في 14 يونيو/حزيران الماضي، النظام من القيام بعملية عسكرية تخرق الاتفاق الثلاثي الروسي الأميركي الأردني، الخاص بوقف إطلاق النار في المنطقة الجنوبية، وتوعّدت بعواقب وخيمة. لكن، فيما بعد، امتنعت الخارجية عن إضافة أي معلوماتٍ إلى بيانها ذاك، أو أي تفصيلٍ بشأن نوعية الرد. ثم بعد أيام، أعربَ تрамب عن قلقه حيال العمليات في المنطقة، محذراً من الدور الإيراني في سوريا. وتزامنت تلك التحذيرات مع حشود الجيش السوري، وتالت حين كان هذا الجيش يُحكم سيطرته على المنطقة، ويُجري المصالحات المعتادة .

يرى كثيرون أن هذا النوع من التصريحات والتحذيرات ليس سوى تخلٍّ رسميٍّ عن المعارضة السورية المسلحة، وعن المعارضة السياسية معاً، وهو ما كان أعضاء بارزون في هذه المعارضة يستنتاجونه، ويلفتون النظر إليه، بعد كل معركةٍ يربحها الجيش السوري. وتأتي تلك التصريحات المتضاربة بعدما ثبت إيقاف واشنطن دعمها العسكري لعدد من الفصائل السورية، بدايةً هذا السنة، خصوصاً في الجنوب السوري. وربما يكونَ كلام نيكى هيلي عن الإرهاب في سوريا تعبيراً عن عدم قدرة واشنطن على تطوير فصائل سوريا معارضة والتحكم بها، كذلك بسبب حاجة حليفتها، إسرائيل، إلى نظام قويٍّ ينهي حالة الفلتان في البلاد، ويبعد إيران عن المنطقة .

ترافقَت حشود الجيش السوري على تخوم إدلب بمساعٍ روسيةٍ من أجل عقد "مصالحة" تُجنب المدينة معركة كبيرة لا يعرف أحد عواقبها أو ارتدااتها، خصوصاً مع تمركز فصائل سورية كثيرة قصدت إدلب وتمركزت فيها، بعد مصالحاتٍ جرت في مدن سوريةٍ كثيرة، حتى باتت هذه المدينة المعلم الأكثر كثافةً بالمقاتلين والنازحين في سوريا. كما إنها تعدّ المعلم الأخير للمعارضة السورية، والتي قال عنها قائد هيئة تحرير الشام، أبو محمد الجولاني، نهاية شهر أغسطس/آب الماضي، إنها ستكون منطلقاً لـ "تحرير كامل سوريا"، من دون معرفة القدرة الفعلية على تنفيذ أجندتها من هذا النوع. وإدلب التي إن تلقت ضرباتٍ من الجيش السوري فستكون الكثافة السكانية فيها سبباً في سقوط آلاف الضحايا، بل كان ترامب أكثر تشاوئاً، حين تحدث، في تغريدهاته تلك، عن عشرات الآلاف، مما بالك بهجوم واسع النطاق؟

طبعاً، ليست مسألة سقوط الضحايا في الحروب والمعارك، وخصوصاً معركة إدلب المحتملة، من أولويات ترامب، أو حتى مما يقلقه، ويبعد النوم عن عينيه. كما لا تقلقه عودة النظام السوري إلى فرض سيطرته على كامل أراضي البلاد. ما يقلقه هو تجذر إيران في سوريا التي تساعدها المعارض على تعزيز هذا التجذر وتكريسه، وتشكيل وجودها في سوريا تهديداً للكيان الإسرائيلي. لذلك من المحتمل أن تكون تغريدهاته بمثابة غضّ النظر عن معركة إدلب، إن لم تنجح القمة الثلاثية الروسية التركية الإيرانية في تجنب المدينة إليها، وإدخالها في عملية المصالحات التي سبقتها إليها مدن ومناطق سورية أخرى.

المصادر:

العربي الجديد